

قراءة وصفية في كتاب تلمسان عاصمة المغرب الأوسط،

للدكتور يحيى بوعزيز

د. بودواية مبخوت

قسم التاريخ، جامعة تلمسان

سيرته العلمية:

ولد الأستاذ الدكتور يحيى بوعزيز يوم 27 ماي 1929 بقرية الجعافرة ولاية برج بوعريريج شرق الجزائر، تتلمذ على يد والده الشيخ الحاج عبد الرحمن بوعزيز حيث تعلم مبادئ اللغة العربية والفروض الدينية وفي سنة 1947 التحق بزاوية الحاج الشيخ حسن الطرابلسي بعنابة، ليلتحق سنة 1949 بجامعة الزيتونة في تونس ليلتحصل على شهادة الأهلية ثم شهادة التحصيل سنة 1956 ليلتحق بعدها بكلية الآداب جامعة القاهرة عام 1957 ليلتحصل على شهادة الليسانس في التاريخ عام 1962 وفي سنة 1976 حصل على شهادة الدكتوراه حلقه الثالثة من جامعة الجزائر.

وظائفه:

اشتغل خلال إقامته بتونس في ميدان الصحافة ثم أستاذا للتاريخ الحديث والمعاصر جامعة السانوية وهران وكان لنا الشوق أن تتلمذنا على يده.

نشاطه العلمي:

كان الرجل نشيطا أين حل وارتحل إذ أثناء إقامته بتونس نشر العشرات من المقالات في الصحف والمجلات التونسية، ونشر كتابا عن جهاد الأمير عبد القادر عام 1957 وكان عضوا في الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ورئيس اللجنة الثقافية في تونس، وفي مصر اشترك في إذاعة حصص من إذاعة صوت العرب عن كفاح الشعب الجزائري، وترأس اللجنة الثقافية، وتحرير مجلة الطالب الجزائري التي يصدرها الاتحاد في القاهرة، وعند عودته إلى الجزائر 1962، اشتغل في

التدريس وعين عضوا في لجنة التأليف المدرسي الوزارية عام 1963 العاصمة الجزائرية وكلف سنة 1969- بتأليف كتاب مدرسي في التاريخ الحديث والمعاصر للسنة الأولى ثانوي وكانت سنة 1965 السنة الحقيقية في ولوجه في البحث الأكاديمي ، إذ ألف كتاب الموجز في تاريخ الجزائر الحديث إضافة إلى ست وعشرين مؤلفا في تاريخ وجهاد وحضارة الجزائر ونشر أكثر من مائة مقال موثق في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، ومن بين المؤلفات الرجل التي شددت انتباهنا مؤلف في تاريخ الجزائر في العصر الوسيط أولاد هو: "مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط" الذي نشرته دار الغرب للنشر والتوزيع سنة 2004 ويعد من بين المؤلفات القليلة التي اهتمت بتاريخ الجزائر في العصر الوسيط يقع الكتاب في 301 صفحة قسمه إلى ثلاثة أقسام غير متوازية خصص القسم الأول: لمدينة تلمسان عبر العصور نشأة مدينة تلمسان وتطورها التاريخي معتمدا على وصف يحيى بن خلدون لمدينة تلمسان في مؤلفه: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد الجزء الأول تقديم وتحقيق الدكتور عبد الحميد حجيات ، يذكر أن اسمها يتألف من كلمتين بريريتين هما (تلم) ومعناها تجمع و(سان) ومعناها اثنان ، ومعناها معا "تجمع اثنتين" الصحراء والتل بمعنى أنها تجمع بين طبيعة التل والصحراء لوقوعها في مكان ملائم لذلك ، فهي تقع في سفح جبل طرارة، وتشرف على ساحل بحري ابن خلدون ي، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ج1، تقديم وتحقيق عبد الحميد حجيات ، الجزائر 1980 ص 85 - 92).

أورد الأستاذ بوعزيز أهم المدن التي اختطت بتلمسان ومن بينها أغادير التي اختطها بنو يفرن الزنايتون ، و لأهمية المدينة وجمال موقعها نسج السكان حولها أساطير كثيرة من ضمنها الأسطورة التي تدعي بأن القرية أزلية الوجود ، وان الجدار الذي ورد ذكره في القرآن الكريم حول قصة الخضر مع سيدنا موسى عليه السلام ، وقد استبعدها ابن خلدون مؤكدا أن موسى لو يغادر المشرق إلى المغرب وأن بني إسرائيل لم يصل نفوذهم إلى افريقية .ومن المدن الأخرى تاجرارت (معناها الملحقة أو المعسكر).

التي اختطتها المرابطون فصلت بسور عن أغادير، ثم بعد مدة من الزمن أزيل هذا السور، وضمت تاجرارت إلى أغادير وتكونت منها مدينة واحدة هي مدينة تلمسان.

وصفها الكثيرون من المؤرخين والرحالة أمثال ابن خلدون الذي قال: فاخطوا- بن عبد الواد بها القصور المروقة والمنازل الجميلة، واغترسوا الرياض والبساتين وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ورحل إليها الناس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع فنشأ بها العلماء واشتهر بها الأعلام، وضاقت أمصار الدول الإسلامية... (ابن خلدون، ع، العبر، 7ص، 77، 78) وقال عنها البكري: هي مدينة المغرب الأوسط ودار ملك زناته ومتوسطة قبائل البربر، ومقصد تجار الأفاق، بهما أسواق ومساجد ومسجد جامع، وأشجار وأنهار وكان الأول قد جلبوا إليها ماء من عيون تسمى: اللوريط بينهما وبين المدينة ستة أميال ولهما خمسة أبواب في القبلة باب العقبة وف ي الغرب باب أبي قررة، وفيها لأول آثار قديمة وأكثر ما يوجد الركاز بتلك الآثار (البكري، أ، المسالك، تح دسلان 1965)

تلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية جميلة المنظر مقسومة باثنين بينهما سور ولها جامع عجيب مليح متسع، وبها أسواق قائمة و أهلها ذوو ليانة والدائر بالبلد كله مغروس بالكروم وأنواع الثمار، سوره من أوثق الأسوار وأصحها وبها حمامات نظيفة أشهرها حمام العالية قل من يرى له نظير، وبالجملة هي ذات منظر... وأنظار متسعة، ومبانيها مرتفعة (ابن خلدون، العبر، 7ص، 77، 78، أيضا العبدري، الرحلة، ص 15).

ويذكر المؤرخون أن تلمسان لها عدة أبواب: القبلة، باب الجياد وشرقا باب العقبة، وشمالا باب الحلوى، وباب القرمدين وغربا باب كشوطه، وهي مؤلفة من مدينتين ضمهما سور واحد إحدهما أغادير و الأخرى تكرارت، وهي الآن أكبر

وأشهر من الأولى، والجامع الأعظم وقصور الملك ونفيس العقار بها، والناس وبها أشد عناية (ابن مريم، البستان، ص123، التنسي، نظم الدر و العقيان ص127). أما في القسم الثاني من الكتاب: فقد تحدث يحيى بوعزيز عن آثار مدينة تلمسان التاريخية التي ما تزال حتى اليوم يحكى عن عظمة هذه المدينة الفكرية والحضارية والعمرانية ومن أهمها: قلعة المنشور التي أنشأها الموحدون بعد سيطرتهم على المدينة في القرن 12م، والمسجد الجامع الذي أنشأه المرابطون وشيد منارته يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة العبودية .

ومن المساجد الأخرى مسجد أبي الحسن بن يخلف التنسي، وسيدي الحلوي الذي شيده أبو عنان المريني 754هـ، ومسجد العباد بأعالي تلمسان ومسجد أولاد الإمام. وذكر أيضا منارة مسجد أغادير وجدار تلمسان والحوض الكبير وغيرها من المباني الدينية الأخرى وجدار تلمسان والحوض الكبير وغيرها من المباني الدينية الأخرى.

ووقف مطولا عند خرائب مدينة منصوره إذ يقول على أن أهم آثار تلمسان التاريخية هي خرائب مدينة منصوره والتي أسسها السلطان يوسف يعقوب كمعسكر لقواته التي فرضت الحصار على مدينة تلمسان أكثر من ثمانية أعوام ولقد شبه هذا الحصار بحصار طروادة الإغريقية الذي دام عشر سنوات. وذكر أهم الغارات التي شنها يوسف المريني على تلمسان في سنوات 689هـ - 695هـ - 696هـ 697هـ، ويذكر أنه احدث بها تخريبا في العمران، والمزارع وإتلاف في المحاصيل والحيوانات ورغم ذلك لم يستطع احتلال مدينة تلمسان التي بقت صامدة بزعامه أميرها عثمان بن يغمراسن الأمر الذي دفع بيوسف بن يعقوب المريني التفكير في فرض حصار طويل عليها وإنشاء معسكر كبير لقواته تستقره خلال الحصار، وتجد كل ما تحتاجه من المؤونة، ففي سنة 698هـ أرسل السلطان المريني يوسف جيشا جرارا ضد تلمسان عسكر بالقرب منها وشدد عليها الحصار وشرع في نفس الوقت في بناء مدينة سماها المنصورة تيمنا بتحقيق الانتصار.

ويذكر يحيى بوعزيز عما عناه سكان تلمسان خلال هذا الحصار الطويل مستندا لما ذكره ابن خلدون :واستمر حصارهم (بنو مرين) إياهم (بنو عبد الواد) إلى ثمانية سنين وثلاثة أشهر ، من يوم نزوله ، نالهم فيها من الجهد ما لم تتله أمة من الأمم ، واضطروا إلى أكل الجيف والقطط والفئران ، حتى زعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس ، وخربوا السقف للوقود ، وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد...

ويذكر يحيى بوعزيز في هذا القسم أيضا المراحل والأدوار التاريخية للدولة الزيانية :ويقول أن هذه الدولة عمرت أكثر من ثلاثة قرون (1236م - 1554م) ولكن حياتها كلها كانت صراعا مستميتا وطويلا منذ عدة قوى متصارعة متطاحنة عليها تتمثل في:

- 1- صراع الأمراء فيما بينهم
- 2- تدخل الدولة المرينية والدولة الحفصية في شؤون الدولة الزيانية ومحاولة السيطرة عليها.
- 3- تدخل الأسبان ومحاولة السيطرة على الدويلات المغربية.
- 4- تدخل الأتراك انقادا لوجودهم بالجزائر.

أما القسم الثالث من كتابه فقد خصصه إلى العلماء والأسر العلمية انطلاقا من العالم أبي مدين شعيب الحسن الأنصاري الاشبيلي دفين العباد ،وقد تحدث عن ترحاله من مسقط رأسه اشبيلية عام 520هـ ثم إلى مدينة سبتة ثم مراكش وبعد ذلك إلى مدينة فاس التي كانت تعيش أزها حياتها الاقتصادية وازدهارها الفكري والعمراني والاجتماعي ومجالسته للعالم الزاهد المنتشف أبي الحسن علي ابن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم وجالس أيضا ابن غالب أبي الحسن وأبي يعزى ذي نورين التلمساني الأصل تلميذ الشيخ مولاي أبي شعيب السارية ومن فاس ارتحل إلى المشرق وعند وصوله إلى الحجاز جالس الشيخ الزاهد أبي صالح عبد القادر الجيلاني لبعض الوقت و أخذ عنه علم الحديث وعلم التصوف وعلوم ومعارف أخرى ليعود بعدها إلى بجاية واستقر بها شاهدا على تطورها الاقتصادي والثقافي و

العمراني وبتجارتها البرية والبحرية ولقد التقى به الكثير من التلاميذ الذين أخذوا عنه الكثير من بينهم محيي الدين بن عربي سنة 590هـ، والفقيه أبو عبد الله محمد بن حماد الصنهاجي القلعي، وعبد السلام بن مشيش ومن بين المؤلفات التي كان أبو مدين يدرسها لطلبته في بجاية: الرسالة القشرية في التصوف للشيخ أبي القاسم عبد الكريم القشيري (ت462هـ)، ليرتحل الشيخ أبي مدين إلى تلمسان ويدفن بها.

- علماء أسرة أبناء الإمام البرشكية التلمسانية 683 - 865هـ، تنتسب هذه الأسرة إلى الإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الإمام برشك الدار والمولد تولى هناك منصب إمام وواعظ في أحد مساجدها (المقري، أ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مجلد 5، دار صادر بيروت، 1968ص244، البستان ص115، التمبوكتي، أ، نيل الابتهاج، 2004، ص67). قتل من قبل زييري بن حماد المكلاطي المعروف 683هـ الأمر الذي دفع بالأخوين إلى مغادرة برشك إلى تونس ثم إلى تلمسان. بعد مقتل السلطان أبي يعقوب 705 هـ. أين أكرمهما الأمير الزياني أبي حمو الأول وابتنى لهما المدرسة المسماة باسميهما وصارا يعرفان بالإمامة ووصفا بالعلمين الراسخين الشامخين (ابن خلدون، ي، البغية، ص130).
فانهال عليهما طلاب العلم من كل حدب وصوب وانتفع بعلمهما " أبو عبد الله الشريف التلمساني والخطيب بن مرزوق وإبراهيم الابلي، وأبو عبد الله المقري صاحب نفع الطيب، وأبو عثمان سعيد العقباني.

- الشيخ محمد بن إبراهيم الأبلي، التلمساني الدار والمولد ولد بتلمسان 681هـ، هو شيخ العلوم العقلية والنقلية في عصره وأشهر علماء المغرب الأوسط في المائة الثامنة هجرية وأحد أساتذة عبد الرحمن بن خلدون ولسان الدين بن الخطيب، أخذ عن فقهاء تلمسان كأبي الحسن التنسي وابني الإمام.

وبذكر يحيى بوعزيز معتمدا على أمهات المصادر أن الرجل عاش مرتحلا بين المشرق والمغرب متأسفا على كثرة انقسام المسلمين على أنفسهم في عهد ه واختلاف كلمتهم مما أدى إلى ضعفهم وتشتتهم وتسلب الأعداء النصرى على

كثير من بلدانهم خاصة بالأندلس ، وقد اخذ الأبلي المسلمين على تعدد ملوكهم ، وتغلب الهوى عليهم كما أخذهم على تحريف وتبديل كلام الله تعالى بتأويله ، وتأويلا خاطئا على حسب هوى كل واحد منهم.

ولقد ركز يحيى بوعزيز في كتابه أيضا على ظاهرة البيوتات العلمية التي ظهرت بتلمسان وركز على أسرة المرازقة والعقابنة وأسرة المقرئ. فيقول عن الأولى أن عائلة ابن مرزوق تنتمي إلى قبيلة التي كانت تقطن منطقة المسيلة ، هاجرت العائلة إلى القيروان على عهد الأغالبة وفي نهاية القرن الخامس الهجري هاجرت إلى تلمسان واستقرت برباط العباد ، توارث أفرادها خدمة ضريح أبي مدين شعيب بن الحسين واشتغلوا بالعلم والتدريس وكان لهم شأن عظيم وذكر بوعزيز أشهر علماء هذه الأسرة وهم:

الشيخ احمد الأول ابن محمد بن مرزوق (681هـ - 741هـ)

الشيخ محمد الرابع بن مرزوق الخطيب والجد و الرئيس (710هـ - 781هـ)

الشيخ أبو عبد الله محمد السادس ابن مرزوق الحفيد (766 - 842هـ)

الشيخ محمد السابع ابن مرزوق حفيد الكفيف (كان حيا عام 918هـ)

ومن بين علماء هذه الأسرة شهرة ابن مرزوق الحفيد الذي قال عنه المقرئ: وأما عالم الدنيا أبو عبد الله محمد بن مرزوق الشهير بالحفيد، فهو البحر الإمام المشهور ، الحجة الحافظ، العلاقة المحقق الكبير النظار... التقي الصالح الناصح ، الزاهد العابد،... البياني العروضي، الصوفي... العارف بالله... شيخ المشائخ... ويذكر بوعزيز أن الرجل فاقت مؤلفاته ثلاثة وثلاثين مؤلفا.

والأسرة الثالثة التي ذكرها يحيى بوعزيز هي أسرة العقابنة التي تنتمي إلى تجيبة بالأندلس ، ارتحلت إلى تلمسان في فترة الاضطرابات التي عمت بلاد الأندلس ، اشتغلت بالعلم وتبع منها علماء كثر اشتغلوا في ميدان القضاء والتشريع الإسلامي ، وكان لهم تأثير بالغ في الحياة الفكرية سواء بتلمسان أو أنحاء المغرب الإسلامي واشتهر منهم :

سعيد بن محمد العقاباني (720هـ - 899هـ)

قاسم بن سعيد بن محمد العقباني (ولد في أواخر القرن الثامن الهجري)

أحمد بن قاسم العقباني (ت840هـ)

إبراهيم بن قاسم العقباني (808هـ - 880هـ)

محمد بن احمد بن القاسم العقباني (ولد في مطلع القرن 9هـ)-

الأسرة الرابعة، أسرة بن خلدون

تحدث يحيى بوعزيز عن الأخوين يحيى بن خلدون وعبد الرحمن وما خلفاه من مآثر في العلم وعالم السياسة ولقد تكلم بإسهاب عن عبد الرحمن ورحلاته شرقا وغربا وما تعرض له من نكبات ومؤامرات وخلوده للتأليف والتدريس.

الأسرة الخامسة أسرة المقري

تنتمي أسرة المقري إلى قرية مقرة قرب مدينة مسيلة هاجرت هذه الأسرة إلى تلمسان في بداية القرن السادس الهجري وكان أول من هاجر منها عبد الرحمن ابن أبي بكر بن علي المقري صاحب أبي مدينة شعيب ، وكان دور هذه الأسرة كدور عائلة المرازقة فاشتغل أفرادها بالتجارة والعلم والتعليم ، وبرز منها تجار ، وعلماء وفقهاء وأدباء و كانت لهم مكانتهم في الحواضر العلمية شرقا وغربا ، ولقد ألف الإخوة المقري شركة تجارية وسيطروا على الأسواق التجارية بالصحراء (ابن بطوطة ، تحفة النظار ، الجزائر ، 1989) ، حضروا الآبار لتوفير المياه وتأمين حياة التجار . ولقد استقر أبو بكر محمد بتلمسان واستقر أخوهما عبد الرحمن بسجلماسة واستقر الشقيقان الأصغران وهما عبد الواحد وعلي بقرية إولاتن في الصحراء. واتخذوا لأنفسهم في كل تلك البلدان ، الديار، والمزارع وتزوجوا واستولدوا الإمام (ابن بطوطة ، تحفة النظار ، ص 681 ، 1989 ، المقري ، أ ، نفع الطيب ، مج 5 ، 205) .

ومن بين علماء أسرة المقري:

أبو عبد الله محمد المقري

أبو سعيد محمد المقري

أبو العباس احمد المقري

ولد هذا الأخير سنة 986هـ بتلمسان وتوفي بالقاهرة 1051هـ ودفن بها. عاش بالمشرق أربعة عشر عاما قضاهما كلها في الأسفار والرحلات إلى الحجاز والشام وفلسطين والإسكندرية وخلف الكثير من المؤلفات:

روض الآس العاطرة الأنفاس-

- أزهار الرياض الرياض في أخبار القاضي عياض

- إتحاف المغرم في شرح السنوسية الصغرى

- أعمال الذهن والفكر في المسائل المتنوعة الأجناس

- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب

المصادر والمراجع:

- ابن خلدون (يحيى) بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر 1980
- ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج7، طبعة بولاق القاهرة
- العبدري (محمد البلنسي)، الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جدو، قسنطينة، د.ط.
- أحمد بابا التمبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج تحقيق على عمر مجلة 1 و 2 ط 1، القاهرة 1986.
- التنسي محمد بن عبد الله، نظم الدر والعقيان، تحقيق محمود بوعباد الجزائر 1985، -
- ابن مريم، البستان، الجزائر، O.P.U، 1986.
- المقرئ (أحمد بن محمد) نفع الطيب من الأندلس الرطب حققه إحسان عباس، مجلة 5 دار صادر بيروت 1968.
- البكري، أبو عبد الله، المسالك والممالك تحقيق دوسلان، 1965.
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله، تقديم محمد سويدي، الجزائر 1989